تلمسان على عهد أبي حمو موسى الثاني

د. أحمد طالب
جامعة تلمسان

حكم الزيانيون بنو عبد الواد، تلمسان منذ (1236- 1554م). ويعود أصلهم إلى قبيلة زناتة التي استقرت في شمال الصحراء الكبرى ، ثم نزحت إلى شمال الجزائر في القرن الحادي عشر.

ولما كان بنو عبد الواد، من أنصار الموحدين، نقل هؤلاء إليهم إدارة تلمسان. مما جعل أبو يحي يغمراسن بن زيان (1236م-1283م) يستقل بالحكم، بعد سقوط الدولة الموحدية، واضعا قواعد الدولة القوية، إذ أصبحت تلمسان، في عهده وعهد خلفائه مركزا ثقافيا وتجاريا مهما.

أما الحالة السياسية لدولة بني زيان، فكانت تتسم بالاضطراب، بسبب محاصرتها، من دولتين، الدولة الحفصية من الشرق، والدولة المرينية من الغرب، بالإضافة إلى التنافس على العرش، من طرف أفراد الأسرة الحاكمة. والاضطرابات الداخلية والفتن، التي كانت تنطفئ لتشتعل أخرى.

وعلى الرغم من هذا كله، فمن الملاحظ، أن هذه المرحلة شهدت ازدهارا علميا وأدبيا وفكريا وثقافيا كبيرا، إذ ظهر في هذا العصر عدد من العلماء، توارث فكرهم جيل عن جيل، كما ازدهرت بفضلهم، الحركة العلمية، داخل الجزائر وخارجها طيلة قرون.

ولقد شهد عصر السلطان أبي حمو الثاني الزياني، ازدهارا كبيرا في جميع المجالات الأدبية والعلمية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. مما جعل العديد من العلماء والمفكرين والمؤرخين، يسردون أخباره ، وأخبار دولته الزاهرة.

وكان كل مؤرخ يتميز عن غيره برؤيته الخاصة، إما من منظور الولاء أو منظور العداء ، وكان الفرق بينهم يظهر أيضا، بين وضوح الرؤية، في كتابة التاريخ، وعدم وضوحها عند البعض الآخر. مثل ما ورد في كتاب: «بُغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد »[1] لأبي زكريا يحي ابن خلدون، لاعتماده في أسلوبه، على السجع والترادف المكثفين، مما يجعل المعنى المقصود مبهما غير واضح، في أغلب الأحيان، على خلاف من كتاب : « العبر » [2] لأبي عبد الرحمان الكبير، الذي على الرغم من اختصاره ، مقارنة بكتاب « البُغية » فإنه شديد الدقة، واضح المؤدى. وقد وردت أخبار أبي حمو من رؤى مختلفة وقد جسدت في كليتها، مدى حضارة دولة بني زيان.. ولم يتحيز ضد السلطان ودولته، على الرغم، ما حدث لأخيه يحي أبي زكريا على يد ابن أبي حمو[3].

يتميز السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن الزياني بمكانة خاصة، في تاريخ دولة بني زيان، لأنه مؤسس الفرع الثاني من بني عبد الواد ، ذلك الفرع الذي استمر في الحكم في تلمسان، وغيرها من بلاد المغرب الأوسط، مدة قرنين من الزمان، من (760هـ – 962هـ). هذا من جهة ، ولأنه استطاع أن يجهز دولته القوية، بمختلف المؤسسات العلمية والصناعية والتجارية والثقافية عامة، من جهة أخرى.
ويتصل نسب السلطان أبي حمو الثاني، بالسلطان أبي يحيى يغمراسن زيان، مؤسس الفرع الأول من بني عبد الواد ، الذي حكم بتلمسان وضواحيها، مدة قرن وربع القرن من الزمان، إذ يُعد يغمراسن جده الثالث.

ولد أبو حمو موسى الثاني، بالأندلس سنة 723هـ، ثم رحل إلى تلمسان للإقامة فيها مظهرا رغبته في الاشتراك في الحياة السياسية. وإن كانت أغلب المصادر لا تتحدث عن هذا الميل المبكر. اللهم ما وجدناه عن رحلته مع عمه السلطان "أبي ثابت" في أحد نواحي مدينة "بجاية"، فارين من المرينيين، على إثر هزيمة السلطان وأخيه أمامهم.

ويتحدث الرواة، أن أعوان المرينيين قبضوا على الرجلين، وهما متنكرين، فتقدم أبو حمو موسى الثاني، وادعى أنه هو السلطان دفاعا عن عمه، إلا أن بعض الناس، تعرف على السلطان الحقيقي. ولما سئل عن هوية صاحبه، ادعى عمه "أبو ثابت" أنه أحد أتباع دولته ورجاهم أن يسرحوه ، فأخلوا سبيله.[4]

وفيما كان العم يساق إلى مقتله، كان أبو حمو يسرع في الهرب مع جماعة من أصحابه[5]. حتى استقر به المقام في تونس، لدى صاحبها السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي يحيى الحفصي. الملقب بصاحب إفريقيا، ووزيره ابن تفراجين. فأقام لديهما معززا مكرما لمدة خمس سنوات.

أوعز السلطان أبو عنان المريني، إلى صاحب إفريقيا الحفصي بإخراج أبي حمو وقومه من بلادهم. فرفض صاحب إفريقيا طلبه. فأغرى ذلك أبا عنان بالحملة ضده . فأرسل جيشه وأسطوله إلى تونس، فارتحل السلطان أبو إسحاق الحفصي إلى الجريد، ومعه أبو حمو موسى وأصحابه.

وقعت أحداث اضطرت أبا عنان، إلى العودة إلى المغرب، فسحب جيشه وأسطوله من تونس، فلحقه الجيش الحفصي، ثم عاد إلى تونس دون وقوع أية مواجهة مع المرينيين. بينما أخذ أبو حمو موسى يعد العدة للاتجاه إلى تلمسان لاسترجاعها من المرينيين، ولربط دولته بمجد سلطان أجداده بني زيان.

تزامنت هذه الرغبة، مع رغبة زعماء "قبيلة زغبة"، الخارجة على السلطان أبي عنان، الذين تركوا ديارهم، إذ تحيّنوا هذه الفرصة للعودة إلى موطنهم، فدعوا أبا حمو إلى موافقتهم على أن يحالفوه ، فوافقهم. وقبل

السلطان الحفصي أيضا، لما في ذلك من إزعاج لعدوهم المرين. فجهزوا أبا حمو بكل ما يملكون من آلة السلطان، فسار في مجموعة، إلى تلمسان وذلك في سنة 759هـ .[6]

لم تكن الرحلة إلى تلمسان سهلة، بطبيعة الحال، فقد حفلت بكثير من المواجهات العسكرية مع نواب المرينيين، وأعوانهم في المغرب الأوسط.[7] فاستغرقت الرحلة ما يقرب من ستة أشهر. وقد زاد وصول نبأ وفاة أبي عنان، من رفع معنويات أبي حمو ورجاله.[8] وصل أبو حمو موسى الثاني تلمسان وفتحها عنوة ، في اليوم الرابع، وذلك في ربيع الأول سنة 760 هـ . وبايع له الناس بالخلافة.

فأمر بالنداء، على بني مرين بالخروج، غير منظرين، وصفح عنهم، ولم يتعرض لهم بأذى. [9]وكان من بين الذين خرجوا ابن السلطان المريني، وابتدأ عهد الزيانيين. فقد طبق السلطان في هذا الظرف العصيب، ما تنص عليها الشريعة الإسلامية . وما تفرضه عليه مكارم أخلاقه العالية، وسياسته الراجحة .

ومن الملاحظ أنه لا يغيب على الدارس، اكتشاف أبعاد التجربة السياسية، لأبي حمو موسى الثاني، من خلال المصادر، التي أولت اهتماما خاصا لأخباره ، من بينها مصدر شديد الأهمية وهو :" بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" لأبي زكريا يحي بن أبي بكر محمد بن خلدون. وتأتي أهمية الكتاب، لكون صاحبه مشاركا في الحياة السياسية، في المغرب، كما تنقل في العديد من المناصب، بل كان كاتب السر، لدى أبي حمو موسى الثاني، بين سنتي :(766-772هـ). ثم بين سنتي(776-780هـ). فالرجل كان مطلعا على أدق الأحداث التي كانت تجري في مملكته.

قسم المؤرخ كتابه إلى جزئيين، الجزء الأول وهو الأصغر لم يخصصه للملوك من بني زيان الذين سبقوا أبا حمو فحسب، بل جاء حافلا وثريا، عالج جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الزيانية، تخليدا لما لهذه الدولة الكريمة من فعل وفخر.. وحرب وسلام .. وأخلاق وإيمان.. وشدة وفرج.. كما تفصح عنه مقدمته. أما الجزء الثاني فقد خصصه لأبي حمو مع ذكر أدق التفاصيل عنه . بلغة العارف، واتساع المطلع، مما يساعد الدارس على تصور عصر أبي حمو موسى الثاني أحسن تصور. بالإضافة إلى كتاب " العبر " لأخيه عبد الرحمن ابن خلدون ، فقد كان شديد الدقة واضح المؤدى. يضاف إلى الكتابين العظيمين كتاب : "نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان" لأبي عبد الله التنسي . وهناك كتب أخرى منها من يؤيده ومنها من يتحامل عليه ويتعصب ضده ، مثل كتاب : " روضة النسرين في دولة بني مرين " لابن الأحمر.

فالأخبار عن أبي حمو متفرقة، وقد وجدنا بعضها على سبيل المثال، عند لسان الدين بن الخطيب في كتابه : " الإحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة " وهو ما جمعه من ترجمة، عن أبي حمو موسى الثاني. وهناك أخبار متفرقة في كتابي المقري " نفح الطيب " و " أزهار الرياض" . وهناك أيضا الأشعار التي كتبت عن

أبي حمو موسى الثاني، بالإضافة إلى الأشعار التي كتبها هو نفسه، في الفخر وغيره من الأغراض التي وصلتنا.

ولحنكته السياسية، وعلى الرغم من الصراعات بينه وبين المرينيين، لم يكن أبو حمو يلجأ إلى الحرب، إلا مضطرا، لأنه كان يفضل الاستقرار لتشييد دولته[10]. فكان يرسل سفراءه بالهدايا الثمينة وكان المرينيون والحفصيون يفعلون ذلك معه أيضا، طلبا للاستقرار.

فقد اعتنى أبو حمو بالجيش، وأقام احتفالا عظيما سنة 767 هـ. وصفه أبو زكريا يحي بن خلدون في كتابه " البغية " بقوله: " فجلس أمير المسلمين ... لعرض جيوشه المظفرة في خباء مطل من أعلى الهضبة ، عل بسيط اصطفت به الكتائب لا يحويها العد ولا تحيط بأنظارها الأبصار ... . "[11]

كما اعتنى أبو حمو موسى بالجيش، اعتنى من جانب آخر أيضا بتحصيل ما يستحقه من أموال من جبايته، حتى يحافظ على اتزان دولته الاقتصادي، وكان متشددا في هذه المسألة. وقد نجح في تدعيم بيت المال، الذي أمد به المجاهدين في الأندلس، كما وجد المال نعمة أيام المجاعة، التي أصابت دولته سنة 776هـ ، إذ تصدق على الضعفاء بنصف جبايته .

قرب أبو حمو موسى إليه العلماء ، اختار منهم الوزراء والكتاب وأصحاب الأشغال والعمال والقادة والقضاة والسفراء. فكان كثير الالتقاء بهم، والتعامل معهم، والاستئناس برأيهم، واستشارتهم في كثير من أمور الدولة.

اهتم أبو حمو موسى الثاني بالعمران ، وأمر أن تكون البنايات في تلمسان على نمط الطراز الأندلسي، (وهو ما يلاحظه الزائر لهذه المدينة لأول وهلة) كما اهتم بالنشاط الصناعي، فشيد دار الصناعة السعيدة ، التي وصفها أبو زكريا وصفا دقيقا. وكانت هذه الدار مخصصة للصناعة الحربية، إذ كانت تعرض منتوجاتها مرتين في اليوم أمام الخليفة. بالإضافة إلى صناعة الأواني من مختلف المعادن، وأنواع النسيج الرفيع، وصناعة الأغراض الجلدية، وغيرها من الصناعات المتعددة، التي أحدثت رواجا تجاريا وازدهارا اقتصاديا منقطع النظير.

ومن الجانب الثقافي فقد بنى أبو حمو موسى الثاني، أكبر بناية تركها في تلمسان، وهي "المدرسة اليعقوبية" التي أسسها قرب ضريح والده ، وقبري عميه أبي سعيد عثمان، وأبي ثابت.

ولما جهزها سنة 765هـ . اصطفى للتدريس بها الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، وبعض العلماء البارزين . إذ كانت تتميز بمستوى التعليم العالي . حضر أبو حمو الافتتاح وكان يوما

مشهودا[12]. كما أسس مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، إلى جانب "المدرسة اليعقوبية" في السنة نفسها.

لقد احتفل أبو حمو موسى الثاني، بالمولد النبوي في السنة الأولى من توليه الحكم، وذلك في سنة 760هـ . وقد دعا للاحتفال بذلك اليوم العظيم، الخاصة والعامة، من أهل تلمسان، فألقيت المدائح النبوية ، وكان من بين هذه المدائح ما هو من تأليف السلطان ذاته . ومنذ ذلك الحين، أضحى الاحتفال بالمولد النبوي في كل سنة. فأما الشعراء فأصبحوا يستعدون لهذه المناسبة، بنظم القصائد والموشحات والمخمسات، وكان من بينهم السلطان أبو حمو موسى الثاني نفسه.

وخلاصة القول فقد ازدهرت التجارة والصناعة والنشاطات العمرانية في تلمسان في عهد أبي حمو موسى الثاني، ولعل هذا يرجع إلى شخصيته كأديب ومفكر وسياسي وهو صاحب كتاب : " واسطة السلوك في سياسة الملوك " فقد وصفته مختلف المصادر بالشجاعة وشدة العزيمة واليقظة والصبر، والقدرة على الاحتمال، رابط الجأش . وقد وصف أيضا بالرجاحة والسداد .[13]

ومن مظاهر اهتمامه بالعلم إنشاؤه ورعايته للمؤسسات العلمية والتربوية، التي أدت إلى تفعيل الحركة العلمية والثقافية في ذلك العصر ، وكانت المدارس ذات أهمية كبيرة . وقد وصفها يحي بن خلدون بالمدارس " والمعاهد الكريمة "[14] ويعني بقوله هذا بأنها حسنة، جيدة البناء مزخرفة بالفسيفساء وغيرها من الأشغال الفنية. بالإضافة إلى مستواها التعليمي العالي كما ذكرنا.

هناك بعض المدارس التي شُيدت في العهد الزياني قبل المدرسة اليعقوبية، من بينها، مدرسة ولدي الإمام، وذلك في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول سنة 710هـ . والمدرسة التاشفينية بناها عبد الرحمان أبو تاشفين سنة 718هـ كانت آية في الجمال بفضل الفن المعماري المتقدم، وصفها المقري بأنها من بدائع الدنيا، هدمها الاستعمار الفرنسي وبنى فوقها دار البلدية.

ظهر في العهد الزياني كثير من العلماء أشهرهم، عائلة المرازقة، والعقبانيين، وابنا الإمام، وأبو موسى المشدالي، وابن زاغو، والسنوسي، وابن الزكري، والمغيلي، والمازوني، والمقري، والونشريسي، والحوضي، والتنسي، ومحمد بن إبراهيم الآبلي، المتوفى 756هـ 1356م الذي يعتبر شيخ العلوم العقلية ، وعبد الرحمن بن خلدون ، يحي بن خلدون الكاتب الخاص لأبي حمو الثاني. وغيرهم من العلماء... .

وهناك الكثير من آثار تلمسان، يعود تاريخها للعهد الزياني الزاهر، اندثرت، ولا يمكننا العثور عليها، إلا في بعض الأوصاف المقتضبة، لبعض الكتاب والأدباء والشعراء والمؤرخين.

هوامش وإحالات

[1]- يحي بن خلدون " بغية الرواد "

[2] - ابن خلدون " كتاب العبر " دار الكتاب ، بيروت ، 1966 .

[3]- ينظر : وداد القاضي " النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الثاني ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها" الأصالة ، العدد: 27 ، سبتمبر- أكتوبر 1975 ، ص : 7-38.

[4]- " البغية " ص 16 – و " العبر " ص 121.

[5]- " العبر " ص 121 و " تاريخ الدولتين " ص 94.

[6] - وداد القاضي " المرجع السابق"، ص 11.

[7]- " البغية " ص 21-23. و " الواسطة " ص 13.

[8]- " البغية " ص 24 و " " العبر ص 132 .

[9]- " البغية " 27- و " العبر " 123.

[10]- " البغية " ص 64 ، 101، 165،166.

[11] - " البغية " ص 181-182.

[12] - " البغية " ص 136.

[13]- " اللمحة البدرية " ص 107

[14] - يحي بن خلدون " بغية الرواد " ج1/ص 86.